أثـر الأدب الـشعبـي فـي الـشعـر الـمعـاصر جدلـيـة الأسطورة والـشعر

أ. أحمد قيطون
جامعة قاصدي مرباح. ورقلة

ذا كانت الأسطورة تتفوق دائما في تلك الموزانات التي يعقدها النقاد والدارسون بينها وبين الأشكال الأخرى، وذلك باعتبارها الرحم التي يتكون بداخلها جميع الأشكال التعبيرية، فلا عجب إن وجد هؤلاء الباحثون أصداء ورواسب الأسطورة في تلك الأشكال. وهو ما جعلها تنعت بـ<<ميراث الفنون، وهي معين لا ينضب للأفكار المبدعة وللصور المبهجة، وللمواضيع الممتعة وللاستعارات والكنايات>>1. لكن هذا القول تنطبق صحته على الأشكال السردية باعتبار الأسطورة نصا سرديا، فما موقع الشعر من هذه الجغرافيا التعبيرية، هل الشعر يمثل ويماثل الأسطورة في جوانب معينة أم أن الأسطورة تبقى الرهان الأكبر الذي يعول عليه المبدع. إن جدل الأسطورة والشعر يبقى مستمرا مادام المبدع يراهن في شعره على الأداة الوحيدة في بناء نصه، وهي اللغة. هذه الأداة التي تعتبر نقطة تقاطع بين العالمين الحالمين الأسطورة والشعر، إذ كلاهما يتخذ منها ملجأ يفر إليه كلما استعصت الحياة وإزدادت غموضا. <<لقد ارتبطت الأسطورة بالأدب –بصورة عامة- من خلال استخدام البدائي للكلمة كأداة أدبية كانت هي البداية التي صنع منها الشعر>>2. وعليه يبقى الجدل قائما بين أيهما للوجود أسبق الأسطورة أم الشعر؟.

ومنه يبقى الاحتمال هو السيد في هذا المقام، إذ تسبق الأسطورة أحيانا الشعر في الظهور إن هي أحسنت شعرنة الحياة بإضفاء اللمسة الجمالية عليها، وبسيق الشعر أحيانا إن هو أتقن لعبة أسطرة الواقع الذي ينطلق منه، واحتمال ثالث يجعلهما توأمين خرجا دفعة واحدة إلى الوجود، إذ يشكل تطابق الميثولوجيا والشعر <<واحدة من القناعات الجدرية عند كثير من الباحثين، فكثيرون يفهمون الأسطورة كمجاز شعري عن تصور فكري بدائي>>3 وبالتالي<<فإن الأسطورة كنص غني بالدلالات والرموز، يتماهى مع النص الشعري كحقل خصب لإنتاج تلك الرموز والدلالات، كما أن الجانب المبهم في الشعر يماثل ما تنطوي عليه الأسطورة كقدر غامض ومصدر مستتر منه يتم استلهامها والوحي بها>>4.

إن خاصية الرمز والإبهام والغموض هي نقاط التقاطع بين الأسطورة والشعر هذه التقاطعات التي يكون أصلها اللغة، هذا الأصل <<الذي نرجح رجوع التشابه الأصيل بين الشعر والأسطورة إليه، فهو ما أكدناه من وحدة استعمال اللغة وتوظيف الخيال في إبداع كل من الشعر والأسطورة >>5 فالمنطلق الأساس للشكلين هو اللغة، ثم يتعدد بعد ذلكن ويستقل كل شكل بنفسه مولدا ما شاء من الموضوعات التي بلا شك تتقاطع أيضا بينهما وهذا ما رآه حسن مخافي في <<أن عامل اللغة نفسه هو الذي أكسب كلا من الأسطورة والشعر استقلالهما عبر لعبة الأشكال>>6.

.

فاللغة باعتبارها الحاضنة لعالم الخارق والمفارق، هاتين الخاصيتين المشكلتين للدهشة التي تحدث للمتلقي وهو يستقبل نصا أسطوريا أو نصا شعريا، أو نصا أسطوريا شعريا*، جعلت الشاعر يعيد النظر في التفاصيل الأولى للحياة التي كان يحياها الإنسان الأول، وباعتباره فنانا يحاول أن يستغل كل ما هو موجود من أجل إثبات وجوده الشك وذلك عن طريق الكتابة التي تسافر به بعيدا وتعيده إلى عوالمه الأولى <<فالأسطورة تكمن في الشعر كإمكانية توفرها اللغة ذاتها عندما تحكي عن الخارق والمفارق فتحاكيه بأسلوب غير مألوف والشعر بالضبط يقدم نفسه على نحو أسطوري>>7.

وعليه فقد أدرك الشاعر مدى قدرة استيعاب الخطاب الشعري للخطاب الأسطوري بما يقدمه هذا الـأخير من خدمة جليلة لفهم عالمه الداخلي والخارجي، فانكب عليها يتمثل شروطها وطرق استخدامها فهي <<الأساس الذي لا يمكن للشعر الاستغناء عنه>>8 حسبما رأى مارك شودر، ولأنها <<تحمل طابع التجربة الإنسانية الأولى مع الحياة ومواجهتها للكون وللأشياء >>9. هذه التجربة التي يحاول الشاعر أن يلامسها من خلال استعادة ذلك الماضي سواء اعتراف به كماض حقيقي أو كماض متخيل.

هذه الاستعادة <<تسعف الشاعر على الربط بين أحلام العقل الباطن ونشاط العقل الظاهر، والربط بين الماضي والحاضر والتوحيد بين التجربة الذاتية والتجربة الجماعية، وتنقد القصيدة من الغنائية المحض وتعمل على التنويع في أشكال التركيب والبناء>>10.

لكن لم يقتصر فقط دور الأسطورة في الشعر على التوحيد بين التجربتين أو على عامل الانقاد من الغنائية بل تعدت إلى أوسع نطاقا من الوظيفة فعملت على إغناء الرؤية الشعرية حتى تستطيع أن تتخلص من قيود الواقع الذي يرفض للشاعر أن يحلق بعيد عنه لذا نجد أن <<الشعري هو الذي يقوم بإيجاد الأسطوري وابتنائه في الكلام وبالكلام... ونصطلح الأسطوري بدفع الشعري إلى الذرى التي يهفو إليها، تلك الذرى التي ينشدها ذرى الشعر الأصيل>>11 حيث الأحلام تتحقق، فيجد العالم وقد ساده العدل وعمه الخير والاطمئنان ، وحيث كل إنسان ينعم بالسعادة التي يفقدها أي إنسان في الواقع الذي يحياه. وهذا ما حاولت الأسطورة الوصول إليه من خلال تلك الأحداث التي يقوم بها الأبطال والمغامرات التي تصل بهم إلى حد الموت من أجل ترسيخ قيمة من القيم أو تطهير سلوك من السلوكات التي لا يمكن للإنسانية أن تتصف بها كالظلم والقهر والاستبداد فبالرجوع إلى الأساطير كما يقول أنس داود <<نجدها تحاول التوفيق بين تناقضات الوجود، وإيجاد معادلة الصراع الخير والشر، والوجود والعدم، والجدب والازدهار والإنسان والمجهول... وهذا الصراع في الحقيقة هو جوهر كل شعر عظيم>>12.

هذا الصراع الموجود في العالم والذي إزداد أكثر في وقتنا الراهن بسبب تعقد الحياة وطغيان المادة على الروح، وانتشار قيم المدنس على قيم المقدس لا باعتباره جانبا دينيا بل باعتباره جانبا إنسانيا فالإنسان مقدس، بحكم التكريم الذي كرمه به الله سبحانه وتعالى، ولأن الأسطورة <<أكثر نتاج البشرية الفني نضجا وبالتالي ثمة اعتقاد ثابت لدى الكثيرين بأن الأسطورة قوية الارتباط بالأدب، وإن يكن هذا الارتباط غير واضح المعالم تماما، بحيث أن مصير أحدهما متعلق

.

بمصير الآخر >>13 هذا التداخل إلى حد الاتحاد والالتحام في جسد واحد جعل شليكل يرى أن <<الأسطورة والشعر شيء واحد لا نفصال بينهما>>14.

وعلى العموم فقد اهتمت آداب كثيرة بالأسطورة وجعلتها على علاقة وطيدة بالأدب فنجد الآداب الفرنسية وقد نهل أدباؤها من الأسطورة والشيء نفسه مع الآداب الإنجليزية إذ أخذها الشعراء كمرجع أساس لأعمالهم، وما الأرض اليباب لاليوت إلا خير دليل على ذلك، ولأنها <<قد أعطت الدليل على أنها متجددة وجديرة بالحياة لأن الخيال البشري يعيد شحنها في كل عصر ويخلع عليها ثوبا جديدا أو يطبعها بطابعه الزماني والمكاني الخاصيين>>15.

ولأن الشعر بدروه <<يمنح الأسطورة بسيرورتها وتمثلها في عالم النفس، وهي تمنحه الامتداد واللازمني بما يشبه الحدس أو الوهم>>16. وهذا ما جعل الشاعر العربي المعاصر عبد الوهاب البياني من خلال تجربته مع الأسطورة يصل إلى حقيقة أن <<الشعر بدون الأسطورة يذيل ويموت بعد كتابته>>17، وغير بعيد عن الشاعر الغربي حاول الشاعر العربي أن يطرق باب الأسطورة لينهل منها ما يمكن أن يجيب على انشغالاته المعاصرة وحتى يبتعد عن الذاتية في طرحه لأسئلته ويلامس المضوعية، رغم أن هذه المحاولة قد أثير حولها جدل كبير في أوساط المهتمين بالأدب الحديث، إذ حاولوا << تلمس الأسباب التي دفعت شعراء الحداثة إلى إقامة هذا الترابط العضوي والأساسي بين الشعر والأسطورة، فلاحظوا أنها تعود لتأثير الأدب الغربي من جهة، ولأسباب تتعلق بطبيعة الأسطورة ومنهج الأسطورة من جهة ثانية>>18 وبين الافتراضين أو بين الاتجاهين مساحة واسعة من النقد الموجه إلى أولئك الذين رسموا تطور القصيدة العربية على انقاض الشعر الغربي، إثر التأثر الذي أدى بالشعراء إلى استلهام التراث الإنساني أسوة بإليوت الشاعر/الناقد، وخاصة التراث الأسطوري الذي تميزت به مرحلة من مراحل الشعر العربي المعاصر، هذا التميز الذي وسمه البعض إمارة على المعاصرة، وهناك من اعتبر الأمر مجرد مجاورة لنص أسطوري لنص شعري فقط. وهو ما عناه اليوسفي بقوله عندما ألح <<على أن العلاقة بين الشعر والأسطورة هي ...علاقة مجاورة لا غير، وهي وحدها لا تكفي لتقي النص من خطر التفكك والتجزء والانكسار، وهذا ما تعجز القراءة المتعجلة عن إدراكه فتجزم بأن حضور الأسطورة في الشعر أمارة على المعاصرة وعلامة على الجدة والأصالة>>19.

إن نص اليوسفي يطرح انشغالات كثيرة على مستوى القراءة. وبالضبط القارئ الذي ينبغي أن يقرأ بوعي كامل وكبير حدود القصيدة، وألا يتعجل في الحكم عليها، كما يطرح اليوسفي علاقة الشاعر بما يكتب وكيف يكتب حفاظا على نصة من التمزق والانفلات في غيره من النصوص مما يذهب سماته.

وهذا ما تحدث عنه بارت وكلود ليفي ستراوس في مقابلتهما للأسطورة والشعر، إذ تحدث الأسطورة تشوهات للنص الشعري. لذا رفع بارث الشعر إلى درجة الكتابة الصفر <<وهذه هي الدرجة التي تحافظ على خاصية الشعر وتقلل من شأن فاعلية الأسطورة فيه، من حيث هدم بنيته واستبدالها، غير أن ستراوس يؤكد على تفاعل وانصهار البناء الشعري والأسطوري في آن>>20. لكن هذا الانصهار والتفاعل يلزمه شروط إذ استخدام الأسطورة لا يتم إلا بإجراء تعديلات تتفق والتعبير عن التجربة المعاصرة و<<تعتبر هذه التعديلات شرطا أساسيا من شروط الاستخدام الناجح

للأسطورة في النتاج المعاصر، لأنها تتيح للأديب الكشف عن أصالته باستخدام مهارته، في استكشاف طرق جديدة للكتابة عن أساطير قديمة، لأن الأديب عندما يشتغل ضمن شبكة من العصور الوهمية التي شاركه فيها القراءة المثقفون يستطيع أن يتجاوز الوضوح ليصل إلى الضمني والساحر>>21.

وعليه فالمهارة مطلوبة عند الشاعر، وهو ينتج النص الأول وهي مطلوبة عند القارئ وهو ينتج نصا ثانيا باعتبار القراءة إنتاجا ، وإلا <<فإن الأسطورة حين تنتزع من منابتها انتزاعا، وتجبر على الحضور، تدخل الضيم على الشعر، إنها تستدعى لتخدمه فتخذله>>22. وبالتالي تحدث فجوة بين الشاعر والمتلقي إثر الضبابية المغطاة على جسد النص بحيث يصعب على القارئ ولوج النص، إذا لم يحسن استعمال واستغلال المفاتيح للدخول إلى عالم نص مملوء بالتاريخ الأسطوري، هذه المفارقة كما يقول لطفي اليوسفي لم يكلف النقذ <<نفسه عناء البحث عن الأسباب التي أدت إلى عزوف المتلقي وتعطل عملية الإبلاغ، بل حرص على تبرئة الشاعر وتأثيم المتلقي، لذلك سلم بأن النص المعاصر يترك في رحاب وفضاءات أبعد من أن تطالها مدارك المتلقي العربي ، وعلل ذلك بأن المتلقي العربي يجهل الرموز التاريخية والأسطورية لأنه يجهل تاريخه ورموزه>>23.

هذا الاتهام للمتلقي كما أورده اليوسفي على لسان النقاد، وهذا التواطؤ بين الناقد والشاعر على حساب ذوق المتلقي، لم يكن وليد الصدفة بل سبقته ظروف، منها الإحساس باليتم والنقص والاتباع فهذه المعاني القابعة وراء المواقف النقدية للنقاد الذين انبهروا بأثر اليوت في الشعر الغربي، ومن ثم تأثر السياب به ليغير هو كذلك من مسار الشعر العربي الحديث، إلا أن هذه المقارنة لم تكن وليدة الصدفة فمثلما انبهر السياب كالشاعر باليوت حين توظيفه للتراث، فكذلك انبهر النقاد عندنا باليوت في كتاباته النقدية، وبذلك مجد النقاد السياب لأنه أغناهم عن الإتيان بالحجج والبراهين التي تبرر تبعية النقد العربي للنقد الغربي.

وفي المقابل الآخر نجد بعض النقاد الذين يرفضون هذه التبعية ويتساءلون عن سر هذا الافتتان بالآخر، إذ يتساءل أحمد المعداوي في أزمة الحداثة <<لماذا يحتاج الشاعر العربي المعاصر إلى استعارة أدوات رفاقه الأوربيين من أجل التعبير عن تمزقة الباطني، أو يمعنى آخر ألا يملك هذا التمزق الباطني من الزخم والخصوصية ما يمكن الشاعر العربي المعاصر من ابتكار أدوات تعبيره بنفسه؟ كما فعل رفاقه الغربيون >>24.

هذه الاستعارة التي انتجت أحيانا ذاتا شعرية مغتربة عن ذاتها خاصة إذا لم يكن هناك وعي بما يسمى المثاقفة، التي كانت إحدى الحجج التي استمسك بها المدافعون عن توظيف التراث في الشعر العربي، وهذا ماجعل النقاد ومن بينهم اليوسفي يرد على أولئك النقاد الذين هللوا للأسطورة واعتبروها منقذا من الظلال، أي من تردي الشعر إلى الحضيض، وإلى الاغتناء من التأثر الحاصل مع اليوت على أنها مثاقفة وليست تقليدا أو محاكاة. وهذا واضح وجلي من خلال ماعنون به محمد لطفي اليوسفي كتابه فتنة المتخيل في جزئه الثاني بخطاب الفتنة ومكائد الاستشراق ليدل على أن الناقد اليوسفي ضد كل مستورد يراد له الدخول داخل أديم النص الشعري العربي، خاصة إذا كانت الأسطورة هي فتنة من نوع خاص قد أسرت وسحرت لب الشعراء العرب.

الاحـالات

1 محمد حمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ص148.
2 عماد علي الخطيب، الأسطورة معيارا نقديا، دار جهينة عمان، 2006، ص43.
3 أليكسي لوسيف ، فلسفة الأسطورة، تر مندر حلوم، دار الحوار للنشر سوريا، ط1/ 2005، ص111.
4 عبد الهادي مفتاح، الفلسفة والشعر منشورات عالم التربية الدار البيضاء ، ط1/2008، ص53.
5 أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص16.
6 حسن مخافي، القصيدة الرؤيا، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1/ 2003، ص119.
* النص الذي تتمازج فيه علامات الأسطورة بعالم الشعر او هو النص الذي تتلبس فيه الأسطورة بالشعر أو العكس.
7 عبد الهادي مفتاح، الفلسفة والشعر، ص54.
8 يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، ص48.
9 أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص20.
10إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة.
11محمد لطفي اليوسفي، المتاهات والتلاشي، ص187.
12أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص41.
13محمد حمود ، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ص150.
14نفسه، ص150.
15يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، ص53.
16 ياسين الأيوبي، مذاهب الأدب، الرمزية، ص210.
17 عبد الرحمن بسيسو، قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر، ص236.
18 محمد حمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ص156.
19 محمد لطفي اليوسفي، المتاهات والتلاشي، ص153.
20 د.أمينة غصن، كونية الأسطورة وتحولات الرمز، مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 13 عام 1981، ص96.
21 محمد حمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر،ص 151.
22 محمد لطفي اليوسفي، المتاهات والتلاشي، ص140.
23 محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ج2، ط1/ 2002، ص295.
24 أحمد المعداوي، أزمة الحداثة في الشعر الحديث، ص115.